صيد الأسماك بالشباك
في شعر
السري الرفاء الموصلي

تأليف:

دكتور / محمد محمد بدر

كلية الآداب – جامعة المنصورة

الأستاذ المساعد بجامعة سلمان بن عبد العزيز

تمهيد :

ارتبط الشاعر العربي بالبحر وأمواجه العالية العاتية و هوائه العليل بوجدانه و خصب خياله منذ العصر الجاهلي، وقد فاز بعض شعراء الجاهلية ببيئة تطل على البحر و شطآنه من مثل طرفة بن العبد البكري، ونسجه امرؤ القيس متوسلاً به في تشبيهاته بوحي الهموم الثقيلة فجعل الليل كموج البحر الذي أرخى بسدوله عليه .

ولم يتعمق (امرؤ القيس) بوصف في البحر ، أو تصوير للموج بحكم غلبة البيئة الصحراوية العربية برمالها و جبالها و أوديتها في مختلف ربوع الجزيرة العربية .

ويأتي عصر صدر الدولة الإسلامية و البعثة المحمدية–على نبينا الصلاة و السلام و تبدأ فتوحات الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة – رضوان الله عليهم أجمعين و يعرف العربي مصر بنهر النيل ، و تفتح الشام و تظهر البيئة الخضراء الزراعية ذات الحدائق و الروضيات والنهريات .

بعد ذلك يأتي التاريخ بالدولة الأموية التي جعلت عاصمتها في دمشق بالشام و تفتح بلاد ما وراء النهر من خراسان و السند والهند ، ثم تنفتح الحضارات وتمتزج الثقافات .

ويطل علينا العصر الذهبي الحضاري العربي ، و هو العصر العباسي الذي شهد ألواناً من تعامل الشعراء مع النهريات والطرديات البحرية، وصيد الأسماك و صور الشباك في نهري دجلة والفرات .

و بلغ شعراء العصر العباسي في وصف النهريات أو المائيات ، أو الصيد البحري مبلغاً عظيماً و كبيراً على يد أكابر شعراء بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، والموصل ، والبصرة ، و سامراء ، و نهر العاصي والأردن في الشام .

ظهر من بين كوكبة شعراء العصر العباسي في بلاط سيف الدولة الحمداني (السري الرفاء)، و الذي تنقل ما بين الموصل في العراق ، و دمشق وحلب في الشام ليترك لنا ديواناً ضخماً و كبيراً ، وفيه شعر ومقطوعات و قصائد خصصها في تصوير الصيد المبتكر الجديد على الشاعر العربي ، ألا و هو (صيد الأسماك بالشباك) ووصف (السفن و الحراقات) ووصف الرحلات الترفيهية البحرية للأمراء و الخلفاء ، بعدما كأن الشعراء قد اعتادوا على المغامرات والرحلات البرية ، أو الصيد البري و الجوى للعقاب والشاهين، و كل أنواع الصقور و النسور.

والسري الرفاء بحكم صنعته وهي صنعة الحياكة أو رفو الملابس ، قد جعل الدقة والتفنن و التطريز لشعر صيد البحر منهجاً و سبيلاً ، فكان صاحب ديباجة و تطريز ووشي و زخارف بالألوان و الهيئات والإبداعات، والتنظيمات التي يعجب بها الناظر ويزداد بها عجباً الشارح و الدارس والناقد على حد سواء.

غاص السري الرفاء في عمق إبداعاته الذهنية فأخرج لنا صوراً فنية راقية واضحة ، بل قل ناصعة ناطقة لألوان ذاك الصيد أو الطرد البحري في الأنهار والبحار ، ففي مائيات الجزيرة العربية في العصر العباسي والتي تواكب و تعادل حالياً نهري دجلة والفرات ، و الخليج العربي وبحر العرب ، وتلك المائيات يطل عليها حديثاً الآن(العراق ، والسعودية، و الإمارات ، والبحرين ، و سلطنة عمان ، وإيران)، و غيرها من الدول قد شهدت مسرحاً واسعاً ورحباً لينظر الشاعر ببصرة ، فيصوغ بشعره أمواجاً شعرية متتالية قد تطول في بوتقة القصائد ، و قد تقصر في أمدها فتكون مقطوعات أو مقطعات شعرية، أو حتى أبيات مفردة .

و الشاعر بهذه الفكرة و تلك الصورة ينقل لنا لوناً من الصيد المبتكر خلاف صيد العرب وطردهم البري في الصحراء ، أو الطرد الجوي بالطيور الجارحة .

وانطلاقة الشاعر لوصف الصياد، والشباك، والأسماك يعد مشاركة اجتماعية للعمل البيئي الذي فرضته بيئة مطلة على ماء نهري أو بحري، ويعكس قدراً من الإعجاب لهذه المهنة الشاقة الشيقة والتي تعتمد على صبر عميق ومثابرة متواصلة؛ وحيل وذكاء؛ وفن وتأنق مثلماً تعتمد مهنة التطريز والرفو والحياكة على نفس تلك المعطيات .

وتظم الطرديات البحرية أو ما يتعلق بالمائيات تدخل ضمن عناية الشعر العباسي و شعرائه بوصف الطبيعة وصورها بمصداقية النقل وواقعيته مع قدر من تدبيج الخيال الفني المرهف المؤثر والمنمق للتصوير الفني أو فنيات الإبداع والتصوير.

وهو لون من ألوان الشعر الشعبي أو شعر الحرف و المهن قد ظهر و تطور مع تطور فن الوصف العربي لينقل الشاعر به حدود الظاهرة الحية المرئية بحواسه إلى أبعد من ذلك برمز تارة ، و فلسفة تارة أخرى، وبأمشاج من ألوان التجسيد والتشخيص لبث الروح في الوصف والتعبير، كل حسب إمكانات وإبداعات شاعرنا (الرفاء) .

لا يعنى البحث بجمع أطر (المائيات) ، من (البرك) ، و (الفوارات) ، و(الناعورات) ، و (الدواليب) ، وغيرها إنما يعنى فقط برصد شعر الشاعر في وصف (الطرديات البحرية و منها صيد الأسماك بالشباك ، راصداً المضمون الفكري ، و مسلطاً الضوء على التصوير الفني ، ما بين أدوات الصيد ، و مراكب أو سفن الصيد ، و لون الماء الفضي اللامع .

ولا يتجه البحث أيضاً إلى قضايا الطرديات البحرية والصيد بالقوس، أو البندق ، أو كلاب الصيد ، إنما يخص أبرز الطرديات البحرية في

مضمونها وهي (صورة صيد الأسماك و تصوير الشباك في الأنهار والغدير بشكل لوحظ فيه قدر عال من التأنق و التفنن و التصريع و الترصيع ، و الوشى و الزخارف اللفظية و البديعية و إبداعات فنيات التصوير لدى شاعر عرف و اشتهر بالصنعة البديعية ، و تحريك الصور الفنية ، و عذوبة اللفظ و سلاسة التعبير الموحي الفضفاض بألوان التورية والكنايات .

و إذا قصدنا الشاعر (الرفاء) ، فقد ذكرته كتب التاريخ و الأدب و التراجم كأبرز الشعراء في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري ، و الذي كان أحد شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني الأمير الشهير ، أي بصحبة أكابر و أعاظم الشعراء آنذاك ، و منهم المتنبي ، و أبو فراس الحمداني ، و كشاجم ، والوأواء الدمشقي ، والضويري .... و غيرهم.

وهو في أغلب التراجم (أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الموصلي صاحب (سر الشعر الجامع بين نظم عقود الدر والنفث في عقد السحر)، وكان شاعراً مطبوعاً عذب الألفاظ ، حسن المعاني مليح المأخذ، كثير الافتتان في الأوصاف والتشبيهات، وإن بعضاً من شعره ما يكتب على جبهة الدهر،ويعلق في كعبة الفكر.[1]

---

(١) أنظر ترجمة السري الرفاء في يتيمة الدهر للثعالبي جـ٢ /ص ١١٧، وشذارات الذهب للحنبلي ، و تاريخ بغداد للبغدادي ، و ديوان المعاني للعسكري، و معاهد التنصيص للبكري ، و ديوان السري بتحقيق تيمور بشا البارودي ، و ديوان السري بتحقيق حبيب الحسيني ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، و معجم الشعراء للمرزباني ،و المؤتلف و المختلف في أسماء الشعراء و ألقابهم للآمدي؛ وانظر فن الوصف لإيليا الحاوي ص ٣٥ و ما بعدها .

وكان السري الرفاء، في صباه يرفو و يطرز و هو مع ذلك شغوف مولع بالأدب و قضاياه و الشعر ونظمه؛ و لم يزل حتى جاد شعره و حسنت صنعته و علا ديباجه ، ((ولما ضاقت عليه الدينا و قل رزقه وصعبت حياته في الموصل خرج إلى حلب و اتصل بسيف الدولة ،و استكثر من المرح له فطلع سعده بعد الأفوال و حسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان في الشام ،و كذلك نال حظوة لم تكن متوفرة له من قبل في العراق)) [١] .

و أتى بغداد بعد وفاة الأمير الحمداني مادحاً أمراء الدولة البويهية و منهم الوزير المهلبي و الصاحب ابن عباد و غيرهم من كبار رجالات الدولة ، فسار شعره في الآفاق و ذاع صيته و علا شأنه و أصبح نجماً لا معاً في سماء الشعر و بين أترابه من الشعراء العباسيين في عصر الدويلات .

و حدثت بين (السري والشاعريين الخالديين) خازني مكتبة سيف الدولة مجافاة و عداوة و تبادل الاتهامات بسرقات الشعر من بعضهما البعض .

---

(١) انظر ما قيل عن السري الرفاء في زهر الآداب للحصري القيرواني : جـ١ / ص ٣٦٠ ، و تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ١/ ص١١٥ ، و تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ؛ و عصر الدول و الإمارات للدكتور شوقي ضيف . و الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز : ص ٢٨٣. و المصايد والمطارد لكشاجم بتحقق النبوي سعلان .

و قد أثنى عليه جل النقاد القدماء بالتزامه عمود الشعر ،و صفاء شعره، و روعة لفظه ، وجزالته مع عذوبته و سهولته التي تحبب إلى النفس و إلى الآذان سماعه و إطراباً له بل إعجاباً و حفظاً و ترديداً.

المبحث الأول
القضايا الفكرية في
شعر صيد الأسماك بالشباك
عند السري الرفاء

إن وضوح الرؤية الفكرية في شعر الشاعر تعكس لنا عدة قضايا تخص شخصه؛ من ثقافة وموروث ومعاصرة وأصالة وإدراك لما حولة. فالشاعر لا ينظم شعراً أجوف خالياً من معاني الأفكار التي يطرحها، قد يؤمن ببعضها، ويعارض بعضها الآخر، فمن خلال هذه أو تلك يبرز لنا قدراً من الأمانة الموضوعية في النقل والتفكير.

والسري الرفاء خصص أفكار صيده البحري بلون مبتكر لم يسبقه الشعراء المعاصرون له على نحو ما أفاض وأجاد في هذا المعنى الطريف المبتكر، والجديد المستحدث، ومن خلال استقراء ديوان الشاعر نجد عنده زخماً شعرياً كفيلاً بعقد مؤلفات ودراسات متتالية حول الصيد و الطرد بمختلف أنواعه ، لكننا نعنى هنا بقدر من التخصيص لصيد الأسماك .

و أفكار الشاعر لا تسلط الضوء على الصياد في النهر أو الغدير فحسب ، بل يتعدى الأمر إلى حصر وإحصاء لأدوات الصيد ومنها الشباك التي يفصل في بيان أشكالها و ألوانها و طبيعتها ، ثم يعرج على الصيد ذاته وهو الأسماك بديعة الألوان والهيئات ،أسماك تفرح القلب و تبهج العين و تسر الناظرين وهي رزق منحه الله لكل صياد تعب وكد من أجل لقمة العيش، وهي ملامح للبيئة البحرية في بغداد والموصل والعراق، وكذا الشام .

و القضايا الفكرية في بيئة الصيد والطرد البحري لها عدة توجهات، فلا يمكن لشاعر أن يخوض غمار هذا الوصف الشعري الرائد إلا بعد أن هضم

واستوعب أفكار الصيادين، كيف يفكرون ؟ وبأي لغة يتعاملون ؟؟ وكيف ينجح في نقل حياة بحرية بأكملها على شواطيء دجلة والفرات، ونهر العاصي ومختلف الأغادير بين ربوع الشام والعراق.

وحقيقة تعد فكرة الصيد بالشباك وصورة الأسماك من معالم الحضارة والجدة والابتكار، والتي لم يعرفها العربي في سابق عهد العصر العباسي، ونظراً لاختلاف طبيعة البيئة جغرافيا، واختلاف البيئات يجعل الأمر صعباً على من لم يعرف هذه البيئة . لكن السري الرفاء قد عاصر منذ نعومة أظفاره في حاضرة بغداد والموصل حياة البحر والصيادين، فقربهم من شعره، وبلغ في أمره هذا مبلغاً عظيماً ورائداً جعله في مصاف الرواد الوصافين الأفذاذ.

هناك قضية فكرية كبيرة شغلت ذهن الشاعر، ألا وهي (لوحة الشباك) في لونها الفضي الناصع اللامع ، وهي مجلبة للخير والرزق في أسماك ما بين الأبيض و الأسود والأحمر، أو المتلون بعدة ألوان، فتبارك الله أحسن الخالقين في أن سخر لعبادة رزقاً ولحماً طرياً يستخرج من أعماق البحار و الأنهار يؤكل ويباع ، وعليه تقوم حياة أقوام بأكملها ، فيقول واصفاً الشباك:

أغبر يحوي الرزق من غبراء	**خفيفة ثقيلة الأرجاء**
كأنها هلهلة الرداء	**كلفها لحظ بنات الماء**
بأعين لم تؤت من إغضاء	**كثيرة تربى على الإحصاء (١)**

(١) ديوان السري الرفاء ، عن نسختي تيمور باشا، والبارودي باشا . ط. دار الجيل بيروت ط١- ١٩٩١م ص٦.

صورة الشباك تلفت أنظار الشاعر في هيئتها الغبراء التي عليها آثار الرطوبة التأثر بنسيم البحر ولفحة لون السواد الخفيف الباهت على شكلها، والذي قد يزول بنزولها في الماء لصيد الأسماك.

وهي في وزنها خفيفة حال إلقاء الصياد المحترف لها في عرض النهر، ثم يصبر، ويتحلى بالحيل والخبرة ليرصد حظه وينتظر رزقه فيثقل وزنها على يديه، وتحتاج إلى فتية أقوياء أشداء ليجتذبوها بعدما ثقلت وامتلأت بما يسعد الرائي ويفرح الناظر، فتسر الأعين ؛ وتنشرح الصدور حامدة شاكرة لرزق وعطاء الله .

وهي في هيئتها أيضاً مهلهلة واسعة رحبة عريضة، ولها أعين كثيرة ، يحار المحصي والعاد لها تأخذ بعيونها فتحسر قلوب عذارى الأسماك، والتي لا تلبث أن تقع في شراك تلك الشباك وتصبح غداءً هنيئاً لصاحبها تحلو له في فصول العام صيفاً وشتاءً.

و هذه الفكرة من القضايا التي سيطرت على رؤية السري الرفاء تجاه الشباك. لم يترك لها لوناً ، ولاهيئة ولا صوتاً، ولا حركة إلا وأحصاه فكراً ورؤية.

يدور الشاعر في فلك فكرة الشباك مقدماً على صورة الصياد أحياناً، وأحياناً يقدمها على صورة الأسماك، ذلك لكونها وسيلة الصيد وأدواته، وغالباً ما يستفيض الشاعر العربي صاحب وصف الصيد والطرد في نعوت أدوات صيده لما لها من قوة وعنفوان لا يصعب عليه صيد كائناً ما كان. (فالسلاح في الحرب) (والأداة في الصيد) هما نصب أعين الشعراء الوصافين.

من أجل ذلك سخر الشاعر كل إبداعات وصفه، وأدوات فكره، وفلسفة رؤيته تجاه وصوب الشباك بكل تفاصيلها ودقائق نعوتها.

وصورة الشبكة أو الشباك تعد من أبرز المضامين الفكرية حيزاً في الصيد البحري، أو الطرد البحرى النهري لدى السري الرفاء، يدقق في صناعة خيوطها، و قوتها التي تشبه مخالب الوحش المفترس، وذلك الذي لا تهرب فريسته منه أينما كانت، بل تأتي خاضعة بكل طواعية ..

نرى مضموناً جديداً في وصف الشباك بعد أن نعتها سابقاً بالثياب المهلهلة، يصورها (بالملاءة المنسوجة التي تشتد في قوتها وجاذبيتها، بل وثقلها أضعافاً مضاعفة بعد أن تلقى بشراكها في الماء، إنها في لون فضي دري مع غبراء اللون عائمة هائمة لتخرج لنا سمكاً ما بين الأبيض الفضي، والأصفر الذهبي، ولها أحشاء تملأ بألوان الخير والرزق من الرحمن، من مثل قوله :

ينم رياها على زهر الربى ... بذات أحداق ترى ما لا يرى

ملاءة ما نسجت لترتدى ... تزيد ضعفا ظاهراً وهو قوى

وجدة تحسبها العين بلى ... غبراء كالدر تغشاها الصدا

تعوم في أبيض كالآل صفا ... ترسب في أحشائه صفر الحشا

أظله منها رداء أم ردى ... فذلك اللذات لا صيد الطلا (١)

فالشبكة تعد مصيدة ذكية، بأنيابها الحادة، وعيونها الجاذبة بسحرها لكل أنواع أسماك النهر، خفيفة رشيقة، ثقيلة كبيرة، تلتف حول فريستها بشكل ناعم وانسيابي دون حدة أو عنف، بهدوء واتزان دون غضب وانفعال .

---

(١) ديوان السري الرفاء عن نسخة تيمور باشا و البارودي باشا ص١٠ .

وهناك مضمون فكري مستوحى لدى الشاعر من المورث الوصفي في الشعر، فلا ينفك الشاعر عن وصف الشبكة كسلاح بتار (بالسيف الحسام)، لكنه لا يقطع رقاب الأعداء، بل هو حسام حاد لا يخرج ما حصل عليه أوفاز به. حسام الشباك فتحاتها و خيوطها، فالشباك في جل تصويرها سلاح صائد حاو لهذه الأرزاق على اختلاف أحجامها ، وألوانها وهيئاتها ؛ فيقول :

فتعتلي منه بأحشاء ملا ... تضحك عن مثل صغيرات المدى

كأنها عقد لآل قد وهي ... أو عن نقي البطن موشي القرى

تومض فيها كالحسام المنتضى ... لم يدر لما قصرت عنه الخطا

يجري على آثاره الطرف الوأى ... حتى يرى عنه كليلاً قد ونى (١)

إن تلك الصورة تعد دمجاً فنياً قد وظفه السري الرفاء بتفنن واقتدار بين موضوع جديد مبتكر وتصوير تراثي موروث، فكما يعتز الفارس بسيفه الحسام فالصياد هنا يتقمص نفسه دور الفارس، لكن ليس في ساحات الوغى والصحراء، بل في ساحة البحار والأنهار يمتطى الصياد مركبه أو سفينته بديلاً عن الفرس ويمسك بشباكه بديلاً عن السيف أو الرمح أو السهم، وله ألوان من فنون المهارة والدربة والدراية عن الصيد .

وتقابلنا فكرة أخرى مبتكرة تخص وصف ونعت الشبكة المعدة للصيد، هي رداء لردى كل الأسماك وفي الوقت ذاته رداء للحياة ورزق أسر بأكملها ، تعيش لتطعم وتأكل، وتبيع و تبتاع. فالصياد بشبكته هذه يسعى على رزق

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٠

أولاده، وهذا حاله وحال مئات الصيادين أصحاب المهارة والتوكل دون الكسل والتواكل، فللشباك ألحاظ وأجفان بيضاء وغبراء؛ فيقول :

و أعين تأنف من إغضائها صافية الأجفان من أقذائها

تردى بنات الغدر في أثنائها يحملها طب بجسم دائها

بيضاؤها تلمع في غبرائها كأنما كسر في أثنائها

صوارما تعشيك من لألائها (١)

أمسك الشاعر بعدسة مكبرة معظمة واصفاً لوحة الشباك ترى في شكلها، وتسمع بصوت إلقائها وجذبها، وعن نسيجها فهي عيون جاذبة خاطفة تخطف قلوب وأجساد الأسماك بلا جبر أو قهر، على الرغم من حدة خيوطها وقوة فتحاتها إلا أنها تمسك بالأسماك فتمتزج ألوان الأسماك مع ألوان الشباك؛ ليطرح لنا لوحة لونية زخرفية طبيعية مصورة ومرسومة بنقش وخلفيات حية نادرة تارة، وصامتة تارة أخرى .

فكرة أخرى جعل الشاعر من شباك الصيد أداة للرزق؛ تأتي بخصب الرزق المحبب المفرح المبهج للناظر. وهي كسلاح ليست حساما أو سيفاً صارماً قوياً، إنما هي (درع يرمى به، درع له عيون تعتمد على مهارة الرامي الصائد ، يعرف متى يرمي بشباكه، و كيف يسيطر على صيده قائلاً :

أداة رزق شأنها عجيب يخصب منها المنزل الجديب

كالدرع أصداها الحيا السكوب يبعثها رام بها ضحوب

له مجال فيه أو سروب إذا ابتغى الرزق بها الطلوب

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٣

أعطته ما يذكو وما يطيب (١)

تلك الشبكة هي مجلبة للرزق، مدعاة للنفع والحياة ، على إثرها يخصب المنزل ويرغد العيش ، وتحيا الأسرة في سعادة وهناء. والشبكة درع يقي صاحبها شر النقص والعوز، وتحميه من كيد الزمن وتقلباته.

لقد كانت الشباك سبباً مباشراً في نيل الرزق والعطاء عن جد ونشاط، وعن خبرة وجهد جهيد، لا تكون خبط عشواء. للصيد وإمساك الصياد بالشباك قدر كبير من العلم والخبرة، والفن والمهارة لكي يحصل في النهاية على مبتغاه فيرضى.

وما زال السري يجدد لنا و يطرح علينا قضيا فكرية مبتكرة، يثري بها لوحة (وصف الشباك)، فنراه في مضمون جديد يصورها بجسم منفتح له نواظر، تلك النواظر ناعمة في شكلها ، لكنها حادة قوية .

هي محبوبة لصاحبها الصياد الماهر الحاذق الذي يمسك بتلابيبها، وهي جامعة حاوية للرزق ، أو بنات الماء، أو بنات الغدير، وأسماك الشباك جواهر ولآليء مفرحة مطربة ترضى صاحبها ، ويرضى بها الآخرون؛ من مثل قوله:

يا رب جسم كله نواظر	**بآمق ليست لها محاجر**
تستر عنك الشيء و هو ظاهر	**محبوبة خلالها الغوادر**
جاءت من الرزق بها جواهر	**صغائراً تومض أو كبائر**
كأنها إذا انتحاها الناظر	**مخازن الفضة أو خناجر (١)**

(١) ديوان السري الرفاء : ص ٦٢-٦٣ .

لقد دبج الشاعر لوحته الفنية لوصف الشباك بأنها مخازن لكل نفع وطيب، مستودعات لأمشاج من الأسماك كبيرها و صغيرها، وهي تمثل جواهر تأتي بعد فضل الله بالرزق الوفير و الخير الغزير ، والشباك جسم كريم محبب للصياد.

يفصل السري الرفاء قضية أخرى في نعت شبكة الصيد فهي ذات طول و عرض ، ولها شراك و أعين طارقة جاذبة لا تنام ولا تغفل، لها قبض و بسط ، ولها علو و خفض، وسوار ذات قنص وفض ،إنها آلة رزق تملأ كف الصائد بكل رضى لبعضهم البعض .

من مثل قوله :

بكل وافي الطرفين محض	**مبتذل الوفر مصون العرض**
قد نضوا للحائن المنقض	**قداً يعض الساق أي عض**
ضعف عيون لم تشن بعض	**لها مآق رسبت في الأرض**
طارقها في قلق و نقض	**تضرب بعض ريشه ببعض**
بين علو موبق و خفض	**ونهض لا منتفع بنهض**
معاجل سوارها بفض	**يا لك من آلة رزق غض**

تملأ كفي راشد و ترضي (٢)

---

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٤٦ ، وديوان السري بتحقيق حبيب الحسيني. جـ٢ / ص ٢٩٨ .

(٢) ديوان السري الرفاء نسخة الباردوي ص١٥٦ ، ١٥٧ ، و ديوان السري بتحقيق حبيب الحسيني جـ١٢ : ص ٣٤٨.

هذه الأرجوزة خص الشاعر منها ثلاثة أبيات لوصف الصياد و السمك ، و جعل البقية الكبيرة في نعوت الشباك التي لها مكالب و سوار تقبض على من تمسك به، وطولها و عرضها جامع لكل ما تحلق به في جوف الماء، راسية هادئة و حركاتها من مصورة تصوير الحاذق المتحرك لأدوات صورته و زواياها وأركانها .

و يلقانا الشاعر بمضمون فكري فلسفي مستوحى من تراث الصيد والطرد العربي ، فالشباك تدور في فلك السهام التي لا تخيب في هدفها ، والسهام لها عيون و ألحاظ ترقب فريستها حال نصبها طولاً وعرضاً ، وسهام الشبكة ذات سنان جارحة قابضة تستحوذ على كل ما يدخل في محيطها قد وقع في أسر سجن وسجان لا فكاك منه ولا مهرب له؛ فيقول:

و مارقة مرق السهام تضمها قرارة مسجور طما ثم عرمضا

بعثت لها جسماً لحاظ عيونه إذا عرضت حتف لهن تعرضا

يرحل عن أوطانه كل سابح إذا بان عن أوطانه ساعة قضى (١)

على هذه الشاكلة يبتكر الشاعر موضوعاً ويفلسف أفكاراً طريفة وجديدة في وصف الشباك، وتصويرها بمفردات تعكس قدراً من صنعته ومهنته ألا وهي الرفو والتطريز، فيبدع تأليفاً ، ويصوغ نسيجاً مختلف الأشكال والألوان، ليعطي لنا ثوباً مزخرفاً ومزركشاً؛ لكنه في بوتقة الشباك الصائدة بعيون لحظ ثاقبة وتحايل الأسماك في خفه ورشاقة السهام ، لكن الشبكة ما تلبث أن تلاحقها ملاحقه كثيرة. و بين كل مضمون و آخر يطل علينا

---

(١) ديوان السري : جـ ٢ / ص ٣٤٤ .

السري بموروث السلاح العربي من (سيف حسام) و (سهم مارق) ، و (درع حصين) ليؤلف لنا شبكة للصيد بمقومات أسلحة العرب في الحرب والقنص والصيد .

ومضمون الشبكة ذات العيون، وأنها تخفى على الناظر لطمسها في الماء في الخفاء مستترة لحين ما، ثم تظهر بألوان الخير والرزق من الأسماك العالقة بثناياها وأحشائها من الأفكار التي تكون قاسماً مشتركاً في نعوت الشبكة، أو الصيد بالشباك التي تمثل خناجر قابضة.

قائلاً في ذلك :

و محجوبة بالماء عن كل ناظر و لكنها في حجبها تتخطف

أخذنا عليهن السبيل بأعين رواصد إلا أنها ليس تطرف

فجاءت بها شتى النجار ولم تزل تجمع من أشتاتها وتؤلف

نصافحها بيض المتون كأنها خناجر في أيماننا تتعطف (١)

تلك الشبكة عيونها لواحظ رواصد وثواقب خاطفة جاذبة، تجمع شتات طولها وعرضها مثلما تجمع الفتاة عباءتها الطويلة الممتدة بخفة ولطف لا تحدث ضجيجاً أو إزعاجاً، بل كل ذلك في هدوء ويسر .

أما جوابنها فهي تبدو للبعيد ناعمة الملمس، لكنها في حقيقة أمرها خناجر قاطعة لا تدع مجالاً لكل ما ألم بها أو أمسكت به فتدخله سجنها الفضي اللامع في صفحة الماء الجاري .

---

(١) ديوان السري بتحقيق حبيب الحسيني:جـ٢ ص ٤٠٨ ، وديوان المعاني للعسكري جـ١/ ص ٣٠٤ و نهاية الأرب للنويري جـ ١٠ / ٣١١.

وترى قضية فكرية أخرى في وصف الشباك ، فهي دانية قريبة تلقف أو تلتهم ما تراه . لها جوانب ترفرف ذات سهام تستهدف شبيهة بالدرع الراصف القابض؛ من مثل قول السري الرفاء .

فهي على ساحته ترفرف ... كل لسهم حتفه مستهدف
ألحفتهن و الجمام ألحف ... شبيهة بالدرع حين ترصف
لها عيون لحظهن أو طف ... يطرفها الماء و ليست تطرف
ثم تلاها قصب مجوف ... مثل القنا ثقفه المثقف
وكل عقفاء إليه توصف ... مثل الهلال و هى منه أنحف
من صفتيها الرفق و التعجرف ... فلم تزل ترسل ثم تخطف
ونحن من أشتاتها نؤلف ... كأنها خناجر تعطف (١)

هي صورة جامعة لكل أشكال و مواضع الشبكة قبل الصيد و بعده ،يصور جوانبها و أحشائها ، يدقق النظر في أطرافها ، يركز (كاميرات) شعره بالصوت والصورة تجاه وضع الشباك في الماء ذات لواحظ الأعين الثاقبة.

ونرى مضمونا آخر أبدعه السري الرفاء ، فالشبكة ذات جدولين وقوسين كبيرين كالهلال، وهي بألف عين ناظرة للماء ، جاذبة لبناته أي أسماكه ، هي مترقبة مترصدة لا تترك صغيراً ولا كبيراً إلا وألقت بأعينها صوبه فتخطفه خطفاً لا يخيب ولايحيد .و مصقولة الجانبين ، عريضة المنكبين لها لون اللجين ، فيقول في ذلك.

وجدول بين حديقتين ... مطرد مثل حسام القين
كسوته واسعة القطرين ... تنظر في الماء بألف عين

---

(١) ديوان السري الرفاء :جـ ٢ / ص٤١٦

راصدة كل قريب الحين تبرزه مجنح الجنبين

كمدية مصقولة المتنين كأنما صيغ من اللجين (١)

إنها شبكة حادة الجانبين مثل السكين اللامع بلونه القاطع بطرفه، لها أجنحة و جوانب ، تخفى على الناظر، لكنها ظاهرة لكل رزق آت دون أن يحدد كمه وكيف جاء . هو رزق رزقه الله بتعب وكد لصيد صياد، خرج في ظلمة الليل قبيل الفجر ليبحث عن قوت يومه. الذي يعتمد فيه متوكلاً مجتهداً لا كسولاً متواكلاً .

على هذه الشاكلة صاغ الشاعر مضامين فكرية ، و فلسف رؤيته التعبيرية تجاه صيد الأسماك بالشباك على عدة أطر فكرية ، منها :

أن الشباك أداة الرزق و مدعاة للجد و العمل . والشباك بألف عين لاحظة ظاهرة ، وخفية مستكينة .

و شبكة الصيد كسهم و درع ، و حسام باتر ، لها لون الفضة في لجين ناصع و غبراء واضحة.

ويرى أن الشبكة ذات نواظر لامعة تأتي دائماً بكل خير لصياد على مركبه في عرض النهر أو البحر .

والشباك ثوب طويل مهلهل ساتر لكل ما دونه و الشباك درع بجوانب قوية رصينة، وهي كذلك حتف وهلاك لصيد حي لا يموت بل يخرج لحما طرباً

---

(١) ديوان السري الرفاء : جـ٢ ص ٧٢٦ ومباهج الفكر للوطواط جـ٥/ ص ٢٩٣ ، و نهاية الأرب للنويري: جـ ١٠ / ص٣٥٣.

متحركاً برأسه و ذيله على الشاطيء ليفرح به الصائد شاكراً لأنعم ربه عليه .

والشباك أداة في قيمتها لا تقل بحال من الأحوال عن سيف المقاتل الشجاع أو الفارس المغوار ، والشباك تمثل في مرحلة (سيفاً) ، و (درعاً) ، و (سهماً) ، و كل أنواع السلاح المباح والمتاح للصياد على شاطيء دجلة و الفرات في العراق .

القضية الفكرية الثانية : (صورة الأسماك في الشباك)

تأتي تلك القضية الفكرية في المرتبة الثانية من حيث كم الأبيات الشعرية، أو حيز اهتمام الشاعر ، فقد اهتم أولاً بصورة وهيئة الشباك ، ثم عرج بعد ذلك صوب الأسماك التي وصفها بأنها رزق ، و أنها (بنات الماء) ، و أنها جواهر و لآليئ .

ويوظف الشاعر جوانب إعجاب أهل البيئة البحرية المطلة على شواطئ البحار والأنهار بذلك الصيد، الذي يستحب أكله صيفاً و شتاءً، و يرتبط صيد الأسماك في فلق الصبح والهواء اللافح، والماء البارد؛ حيث يقول:

أغبر يحوي الرزق من غبراء خفيفة ثقيلة الأرجاء

أقبلت تملأ عين الرائي بكل صافي المتن والأحشاء

أبيض مثل الفضة البيضاء أو كذراع الكاعب الحسناء (١)

تلك الصورة يضع الشاعر فيها ألوان الأسماك الطاغية ، ومن أبرزها اللون الأبيض الفضى الناصع اللامع، وجسم الأسماك في هيئتها شبيه بالمرأة

---

(١) ديوان السري بنسخة البارودي و تيمور باشا : ص ٦ .

حسنة المظهر ظاهرة النهدين، وهي مسحة جمالية اتفق عليها العرب في جمال المرأة و نقلها للأسماك.

و نرى في نفس اللوحة الوصفية مضموناً آخر ، بعد أن رصد (الهيئة) و(اللون) للأسماك ، انتقل إلى حركاته في قفزة إلى أعلى ، فهو ياقوته زرقاء ، خرج من الماء في نشاط مثل غداء مشهياً محبباً إلى الصياد. ذلك الغداء الطازج المبارك ، إنه نعمة من الله جامع لفضل المعادن و الجواهر الغالية من مثل قوله :

أطلقه من لجة خضراء ... في لجة يلعب في ضياء
كأنه ملقى على الحصباء ... ينظر من ياقوته زرقاء
في جوش مفضض الإثناء ... قد لها من جونة الضحاء
أو من جبير مزنة غراء ... غداؤنا بورك من غذاء
نؤثره في الصيف و الشتاء ... على القديد الغض و الشواء
رزقاً رزقناه بلا عناء ... نعده من سابغ النعماء (١)

لوحة طريفة وظريفة أبدع الشاعر نسج مضامينها الفكرية بفلسفة ابتكارية ، فالأسماك غذاء و غداء يولد الفكر ، و يورث الصحة و العافية. فقد أجمع الأطباء على فوائد الأسماك وخفة طعامها ، وهي مطروحة صيفاً و شتاءً .

و يوضح لنا لوناً من الشواء ليس شواء لحم صيد بري لظباء في الصحراء ، بل الأسماك في الماء ، وينعم به الصيادون ، ويهنأ بها المطعمون حمداً و شكراً. فهو رزق قد كفله الله بلاعناء مثل عناء صيد وطرد البر

---

(١) ديوان السري الرفاء بنسخة البارودي و تيمور باشا : ص ٧

و الجو ، مع الأخذ في الاعتبار أن صيد البحر يحتاج إلى مهارة و صبر و أناة دون عبث أو ضجر أو تسرع .

يصوغ الشاعر فلسفة أخرى للأسماك فهي (لآليئ) ، و(درر) و زهر الربى ، و (صفر الحشا) ، وهي (آل صاف) ، ترتبط بشباك ذات عقد متماسك ؛ صغير و كبير؛ فيقول :

نعوم في أبيـــض كالآل صفـا ترسب في أحشائه صفر الحشـا
فتعتلـــي مـنه بأحشـاء ملا تضحك عن مثل صغيـرات المدى
أظـلـله مـنـها رداء أم ردى فذلك اللـذات لا صـــيد الطلا
يجري على آثاره الطرف الوأى حتى يرى عنه كليـلاً قد ونى (١)

إن الشاعر يعقد موازنة طريفة بين الشباك المعقودة بعقد مثل عقد اللآلئ ، و لون الأسماك الفضية والخضراء السندسية ، و الصفراء الذهبية كأن الشاعر يضع ألوان الطيف وألوان المعادن مجتمعة في لوحته الفنية راسماً بقلمه ، و مصوراً بعدسته معبراً بكلماته عن تلك الصورة الحية لحياة البحر والصيد والطرد البحري الممتع .

و يمازج أيضاً بين عيون الأسماك ، كأنها عيون جواهر و ياقوت و زبرجد ، و عيون الشباك الساحرة في طرفها كألحاظ المها الناعمة الملساء لكنها حادة قوية كخناجر مسنونة .

---

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٠

و كنى الشاعر عن الأسماء بقوله (بنات الغدر) لأنها قد خدعت ووقعت في الشباك، مثلت رزقاً للصياد ، و تلك الأسماك قد سخرها الله لكي يعيش على غدائها الصياد الماهر ، قائلاً في ذلك:

تردي بنات الغدر في أثنائها يحملها طب بحسم دائها

مجدد مارث من أعضائها تجذبها والرزق في أحشائها

بيضاؤها تلمع في غبرائها كأنما كسر في أثنائها

صواراً ما تعشيك من لألائها (١)

صورة جديدة رصد فيها السري الرفاء حياة و نبض الأسماك التي خرجت تنعم بالحياة ، لكنها في ظل محبس الشباك التي علقت بأسنتها مثلما يعلق الصيد بأسنة الرماح ، هي ساحرة جاذبة ، و في الوقت ذاته غدرته بهذه الأسماك ، و حجم أسماك ما بين صغير بين أو كبير ظاهر للعين مالئ لها ، تومض برأسها ، و ترمق بطرف عينها ، تعلو وتهبط ، تصول و تجول لكن في رحاب حصينة لا تهرب ولا تزيغ عن الصائد ؛ من مثل قوله :

جاءت من الرزق بها جواهر صغائراً تومض أو كبائر

كأنها إذا انتحاها الناظر مخازن الفضة أو

خناجر(٢)

---

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٣

(٢) ديوان السري الرفاء : جـ٢/ ص٢٩٨

يحلو للشاعر أن يضع الألوان الطبيعية لنعت الأسماك في الشباك ، فهي في حقيقتها جواهر كانت مخباة ، و ظهرت من تنقيب الصياد و شباكه التي ستزت و أخفت معالمها لتتحين الفرصة ، و تنقض على فريستها بشكل مخطط و يسير ، لا فيه عنف أو قتل ولا سفك دماء ، بل يخرج الرزق المنعوت للأسماك صحيحاً متحركاً بنبض الحياة إلا أنه محبوس طريد شباك حادة قوية. فالأسماك تعدل في قيمتها الجواهر للصائغ أو خبير الذهب و الجواهر، يعرف حقيقتها و يقدر قيمتها تقديراً لائقاً .

لقد مثلت الأسماك للشاعر سهاماً مارقة في خفة حركتها و محاولاتها المستميتة أن تنقذ نفسها من محبس شباك الصياد ، و هي مليحة القد ، ساحرة الطرف رائقة العين ، قد حم قضاؤها حال سقوط الشباك في الماء، أسنانها مفضضة؛ حيث يقول :

ومارقة مرق السهام تضمها ... قرارة مسجور طما ثم عرمضا

بعثت لها جسماً لحاظ عيونه ... إذا عرضت حتف لهن تعرضا

يرحل عن أوطانه كل سابح ... إذا بان عن أوطانه ساعة قضى

وكل مليح القد إن نشر الردى ... عليه رداءً لاح فيه وأومضا

كأن يد الصياد إذا ظفرت به ... مجردة منه سناناً مفضضاً (١)

بديعة تلك الصورة المتحركة الناطقة ، حيث جسد و شخص الشاعر كل مكونات اللوحة؛ فالشباك تتكلم ، والأسماك تتنفس و تحس و تشعر

(١) ديوان السري الرفاء : جـ ٢/ ص ٣٤٤

بالخطر المحدق الذي تم؛ ولا ملجأ منه إلا الاستلام بعد فشل الهروب من مخالب الشباك .

ومضمون آخر في نفس اللوحة الشعرية السابقة في وصف الأسماك ، حيث يرى السري الرفاء فيها المشاكسة و المراوغة ، بل تفوق في ذلك مرق السهام في الحروب ، و هي ما تلبث في حركة بهلوانية قفزاً إلى أعلى وتارة إلى أسفل ، والشباك تعد المنية و الردى المحقق المحدق بها. فهي ساعة قضاء الأسماك برداء أغبر وعيون لحاظة قاتلة ، وأسنان هذه الأسماك مفضضة يجردها الصياد ليستطيع الإمساك بها في أمان واطمئنان:

ومارقة مرق السهام تضمها قرارة مسجود طما ثم عرمضا

كأن يد الصياد إذا ظفرت به مجردة منه سناناً مفضضا (١)

إذن الأسماك لها قد نحيف ، و تمتع الناظر إمتاع الحامدين الشاكرين ، وتبهج الأعين بذلك الرزق الذي وهبه الله لكل صياد .

ويعد (السري الرفاء) من أئمة شعراء الطبيعة في العصر العباسي بل و يعد على رأس شعراء العراق والموصل، وحلب والشام في بلاط سيف الدولة الحمداني. فلم يترك صغيرة و لا كبيرة في الحضارة والعمران، وفي الطبيعة البحرية والطرديات إلا وقد سلط شعره وكثف صوره وتصوره وتصويره الفني بشكل إبداعي ابتكاري، مع التأكيد على ريادة الصنوبري لشعر الطبيعة قبل السري .

---

(١) ديوان السري الرفاء :جـ٢ / ص ٣٤٤

وأورد النقاد بأن شعراء الطبيعة ((قد تميزوا في ذلك العصر بالنقد و التأليف – وأصبح الشاعر – يجاهر برأيه ويحدد أهدافه الشعرية)) [١]. و هذا الملمح الإبداعي يثرى قيمة الشاعر و يؤكد على اتساع ثقافته و تشعب معارفه ، مما يجعل شعره مجالاً لاستراض علومه و معارفه و بث آرائه و فكره.

وهناك مضمون مبتكر جديد ، يرى فيها الأسماك رؤية الفريسة التي أصبحت قيد الحبس بأغلال و محبس شباك الحبس والاحتجاز، ما بين بكر لم تتزاوج، ولم تصبح لها أولاد، وأخرى حبست بأولادها بأعداد كبيرة، في قلق واضطراب، فيقول :

قد نصبوا للحائن المنفض	**قدا يعض الساق أي غص**
طارقها في قلق و نقض	**تضرب بعض ريشه ببعض**
بين علو موبق و خفض	**ونهض لا منتفع بنهض**
فكم رمت ذا بسطة بقبض	**وأمسكت بكراً على مفتض**
معاجل سوارها بفض	**يا لكمن آلة رزق مفتض**

تملأ كفي رائد و ترضي(٢)

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل . ط. دار المعارف . ص١٩٥.

(٢) ديوان السري الرفاء : جـ٢ ص ٣٤٨ ، و ديوان السري بتحقيق البارودي ، ص١٥٦، ص١٥٧.

هذه أرجوزه فيها معالم الجد والنشاط والسعي نحو الرزق؛ فالأسماك رزق رزقه الله لكل صياد مجتهد أحكم شباكه فصاد ما لذ وطاب وأرضاه وطابت به نفسه، فهنا وحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه.

لوحة الأسماك في الشباك بمثابة المختطف الذي أخذ في خلسة وبأقصى سرعة على يد لحاظ الشباك في الماء باختفاء ودهاء، وكل ألوان تلك الأسماك إلى مال الحمام والمنون والمنية المختفية، ولونه فضي لامع ، وجنى ورزق يانع كمثل الثمار؛ فيقول :

للعين فيه أى وجه تصرف ... بساط مشور نداه ينظف

له من الأسي الجني رفرف ... وجدول لجته لا تنزف

تصقل متنيه الرياح العصف ... فماؤه مروق منطف

مثل السراب افتر عنه الصفصف ... حيتانه دانية تلقف

فهي على ساحته ترفرف ... كل لهم حتفه مستهدف(١)

لقد توج السري الرفاء كل معالم تصوير الأسماك في لونه الفضي، وهو رزق في ماء البحر والنهر، مثل الثمر في الشجر في البساتين، فعقد (السري الرفاء) مقارنة بين الأسماك في الشباك في الماء، والثمر على الشجر في الرياض أو البساتين والشباك تعصف بها الرياح ليعلق بعيونها أمشاج مختلفة اللون والهيئة والشكل والحجم، فتبارك الله الذي أخرج لنا لحما طريا من الماء – فسبحان الرازق الوهاب.

---

(١) ديوان السري : جـ٢/ ص ٤١٦ .

ويبتكر السري الرفاء مضموناً فكرياً طريفاً في رؤيته لصورة الأسماك والتي تعد طعاماً يفتخر به مقدمه، بل هي من أفضل أنواع القرى للصحب وكل أفراد الربع ، ولها عضاريف وذات لون فضي لؤلؤي؛ فيقول واصفاً ذلك :

يكثر عن خناجر صفوف ... تضمن للصحب قرى الضيوف

تراه قبل شده العنيف ... مخضب الظفر من الغضروف

أنس في مطمورة الحتوف ... موشية كالبرد ذي التفويف

تضحك عن دمع الحيا المذروف ... سرب مها كاللؤلؤ المشوف(١)

لقد دقق الشاعر النظر، وأظهر اللون، وتابع بكل فنية تصويرية عالية المستوى لألوان الأسماك في أسر الشباك، وهي زاهية ناصعة اللون، تتلألأ مع برد الماء، وبكور الصحبة، في جد و نشاط . وعندما نركز في لفظه وصورته نجد تأثر الشاعر بمهنته؛ ألا وهي الحياكة أو كونه حائكاً يعمد إلى فن التفصيل والتصميم والتطريز؛ ليعطي لنا صورة فنية بالمعجم اللغوي والتصوير الفني في آن واحد ونراه بعد ذلك مخرجاً لنا درراً من قصائد وصف الصيد. يتجه الشاعر أيضا إلى رسم لوحة أخرى أظهر فيها هيئات الأسماك في الشباك بعقد للزينة والزخرفة، عقد لؤلؤي متماسك، تتولى مسؤولية تلك الشباك محكمة القبض والإمساك بصيد يبهج عين الصائد و الرائي، من مثل قوله :

نطرق من حيتانه ... صيد حجاب ما طرق

فصافحت صفحته ... كل جديد كالخلق

يبعث منه جسداً ... أعضاؤه طرا حدق

---

(١) ديوان السري الرفاء : جـ ٢ / ص ٤٣٠

يريك درعاً جعلت لجوشن الماء طبق (١)

من يرى تلك المقطوعة يلمس بوضوح تداول لفظ (الحيتان) يؤخذ من وراء حجاب تتمثل في هيئة الشباك؛ وهو خلق لم يعرف من ذي قبل ، و الشباك بمثابة درع؛ ورمح؛ وسهم جاذب خاطف لفريسة طريدة في الماء و ليست في البر أو الصحراء .

وشكل ومضمون الجواهر مختلفة الأشكال ، متعددة الألوان مضمون عام وشائع أكسبه (السري الرفاء) لأسماكه غرائب الألوان والأشكال ، فسبحان الباري المبدع الذي أخرج لنا لحما طرياً بديعاً ذا بريق ، من أجمل المسرات لكل مشاهد أو سامع حيث يقول :

إذا نجا من غرق رد فعاد في غرق

آخذ ما عن له وضامن ما قد أبق

فما تني بينهم زاهر الرزق نسق(٢)

وعيون الأسماك في عين الشاعر يا قوت أزرق مبهر مبهج لمن صاده و اقتاده مكبلاً في شباك غبراء، و له و شي و ثوب جامع بين الأخضر والأحمر ، و الأزرق والأبيض بشكل ناصع؛ فيقول عنه وهو سرب عجيب غريب :

آخذ ما عن له وضامن ما قد أبق

فما تني بينهم جواهر الرزق نسق

مجنحات ليست غرائب الوشي اليقق

---

(١) ديوان السري الرفاء : جـ٢/ ص٤٦١

(٢) ديوان السري :جـ ٢ / ص ٤٦١

كأنما عيونها فصوص يا قوت زرق(١)

إن الصيد البحري في دجله والفرات، وكل البحيرات التي عرفها ورأى الشاعر أنواعها في بغداد ، والموصل قد بلورت لديه فلسفة الصيد البحري والطرد بالشباك؛ لينقل لنا بيئة طردية برز فيها (الصياد الماهر) و(السمك الأزرق اللؤلؤي) و(الشباك الغبراء الجامحة ذات الخناجر والخطاطيف . الأسماك ذات اللون الأزرق ، أحشاؤها صافية ، و على الرغم من حدة زعانفها حدة السيوف ، إلا أنها تقع في فخ شباك الصياد هي مارقة هاربة ومع ذلك قدرت رزقاً غضا طرياً لكل صائد مجتهد فنرى ذلك في قوله :

وكله نواظر لا تطرق حتى إذا نم عليه الفلق

وضمه صافي الجمام أزرق أحشاؤه من غير رعب تخفق

جاء بأمثال المدى تألق أو مثل أنصاف السيوف تبرق

تمرق و الحين عليها مطبق أحداقه سور عليها محدق(٢)

ويتداول الشاعر في أكثر من مقطوعة شعرية لوصف أسماك صيده ذات اللون الأزرق ، وهي رزق رزقه الله لكل مجتهد أعطاه الله نصيبه من السعي و الكد في برودة الجو والماء ، وهي لجين اللون تملأ العين و تشرح الصدر؛ من مثل قوله :

راصدة كل قريب الحين تبرزه مجنح الجنبين

كمدية مصقوله المتنين كأنما صيغ من اللجين

---

(١) ديوان السري الرفاء : جـ٢ / ٤٦١

(٢) ديوان السري : جـ٢ / ص ٤٧٢ .

رزقاً هنيئاً يملأ العينين بغير كد و بغير أين (١)

إن الناظر لتلك المقطوعة الشعرية يرى ابتكارات متتالية لدى الشاعر ، فالأسماك في حدتها تشبه حده المدية أي السكين اللامعة القاطعة ، و جنباه أي جنبا الأسماك ذات أجنحة تخفض وترفع ، وتبسط وتضم حال عراكها الأخير مع شباك الصياد .

على هذه الشاكلة فقد صاغ السري الرفاء ابتكارات فكرية برؤية شاعر مدقق متفحص ، ضبط أركان الصيد بلوحة للشباك بكل تفاصيلها الدقيقة، مع ملاحم للوحة الأسماك داخل الشباك على قدر من الترابط المنطقي والتناغم الفكري والتآلف الواقعي ، ليكمل لنا اللوحة بصورة بشرية للصياد، أو إن جاز التعبير الفارس البحري الذي يرجع الفضل بعد الله إليه على قدر مهارته ، و إجادته لاختيار موقع الصيد وتوقيت زمانه ، وكيفية التحايل والدهاء .

القضية الفكرية الثالثة : [صورة الصياد]

إن مهنة الصيد والطرد البحري تحتاج إلى قدر كبير من الصبر والمثابرة عن عقل و فكر ، لا عن خضوع واستلام . و الصياد للأسماك بالشباك له مواصفات خاصة تختلف عن صائد البر والجو؛ و ذلك لأن سلاحه وهو

---

(١) ديوان السري : جـ٢/ ص٧٢٦

الشباك يعتمد على توفيق الله ورزقه إياه ، إضافة إلى قناعته برضاه بما قسمه الله له إن قليل حمد و شكر، و إن كثير حمد و شكر ، و إن انعدم الرزق ، حاول وجاهد دون جزع أو يأس أو قنوط.

لقد احتمل الصياد زمهرير البرد القارص المميت المهلك للأبدان في سبيل تحصيل الرزق من الرحمن ، هو يرمي شباكه بعد تحري الدقة الممكنة ، وفهم مواطن تجمع كل الأسماك في خفة و رشاقة ، و دعة وطلاقة كي ينال ما لا يتوقعه من خيرات الله ، فتراه مبتسماً نشيطاً يعانق كل ما يقابله بلون التألف والتمازج و حسن التصرف دون ضجر أو ضيق .

وأول ما يلقانا من مضمون فكري لصورة الصياد برؤية و فلسفة (السري الرفاء) معنى البكور عن جد وهمة و نشاط و إقبال على الحياة. مع فلسفة ثابتة بأن الرزق قد يأتي ، وقد لا يأتي ، هو في كلتا الحالتين صابر على الجهد والبلاء ، قانع بكل ما يرزق من الأحياء البحرية ، و البكور فيه سبق للطير في أعشاشها ، مازال ظلام الليل الأخير يغطي الأفق ، و يهلل لرزق ربه مع تعامله بحب لسلاح صيده و هو (الشباك) التي تنصب و تفرش ؛ فيقول :

وباكر لغيره ما يرزق	**مثر به طورا وطوراً مخفق**
يغدو وجلباب الظلام أورق	**والأفق لا جون و لا مخلق**
يهلهل الصنعة هو موثق	**يلحق بالماء التي لا تلحق**
ويرمق الشخص الذي لا يرمق	**وهل يفوت لحظه أو يسبق؟(١)**

(١) ديوان السري الرفاء : جـ ٢ / ص٤٢٧

لوحة الشاعر تؤسس فلسفة الصياد صاحب البكور و الذي لا يبارى فيه، ورزقه ليس دائماً متصلاً ، ولا بائساً متقطعاً وهو صاحب اقتحام الصبح في فلقة قبل الانبلاج وظهور ضوء الصبح ، يرى بعينه ، ويتدبر بعقله ، و يستخدم قوة ذراعية لرمي الشباك و ينظر ما يأتي به الماء .

ولغة الصحب و الفتية من أمارات الصيد ، فهو يحتاج إلى تجمع وترابط ،و إخلاص و تعاون ، فالصيد في مجمله عمل جماعي يقسم ، و مهنة و حرفة فيها حب للصيد دون كلل أو ملل، من مثل قوله :

إذا جلا الغيم له عن حاجب الشمس برق

باشر صحبي برده قبل تباشير الفلق (١)

هذا الصياد يسابق الزمان بهمة قبل أن يبزغ الصبح بضوئه، كي ينال مبكراً صيداً ورزقاً يسطيع به أن ينعم بالصحبة و يطرب للزرق .

وحياة الصياد تتكيء على نوم قليل ، و هو لا يغمض له جفن ، ولا تهدأ له عين ، بل ساهر ، ينظر البرق والأفق ، يعتمد على خفه الحركة ، دون اندفاع أو تهور ، بل على هدوء محسوب ، واشراح صدر وسعة خاطر؛ فيقول :

قد أغتدي قبل وجوب الفرض والجفن قد ودع طيب الغمض

وبارق الأفق كليل الومض كأنه عرق ضعيف النبض

بكل وافي الطرفين محض مبتذل الوفر مصون العرض(٢)

---

(١) ديوان السري :جـ ٢ / ص ٤٦٠ .

(٢) ديوان السري الرفاء : جـ ٢ / ص ٣٤٨

من ينظر إلى هذه الأبيات يرى بوضوح مصداقية الوصف وواقعية التعبير ، وكأن الشاعر قد وضع نفسه في محيط الصيادين أثناء بكورهم، وتأهبهم للصيد ،قد يسبقون صلاة الفجر أي صلاة الفرض ، لم يتمتعوا بنوم حتى مطلع الشمس بل يكونون في صبح مبكر؛ وعين ثاقبة؛ وذراع مفتول يمسك بالشباك لينال رزقاً من الماء.

وهناك بيت ضمن مقطوعة وصف الشباك والأسماك يصور لحظة الفوز والنجاح وتحصيل التقدير عندما يظفر بصيد الأسماك بسنان ليست سهاماً بل شباكاً بألف عين، وقد نجح بعد مبارزة ومراوغة لأسماك مارقة مراوغة لا تستلم، بل تقاوم حتى آخر لحظة فيقول :

كأن يد الصياد إذ ظفرت به محردة منه سناناً مفضضا(١)

وتسترعي حالات وهيئات الصياد اهتمام (السري الرفاء) فهو صاحب لبس زاهد شاحب ، وشعر أشعث، لا يعرف للرفاهية طريقاً ، ولا للهو و الترف سبيلاً ، يتلون بلون الغبرة مع شباكه الغبراء من رطوبة و هواء؛ فيقول :

وشاحب اللبسة و الأعضاء أشعث نائي العهد بالرخاء
أفضى به العدم إلى الفضاء فوجهه للضحى و الهواء

أغبر يحوي الرزق من غبراء خفيفة ثقيلة الأرجاء (٢)

---

(١) ديوان السري : جـ٢/ ص٣٤٤

(٢) ديوان السري الرفاء ص ٦

يمسك الشاعر بكاميرا تصويرية لينقل لنا صورة حية ناطقة في لحظة الصبح و البكور ، و الضحى والسطوع؛ ليشخص صورة الصياد صاحب اللبسة الزاهدة و الوجه الذي لفحته برودة الماء و الهواء معاً.

و مضمون جديد مبتكر جعل الشاعر (الغدو) أو كونه يغتدى من نوم عزيز ، وكأنه خمر تسيطر على شاربها و هكذا حال الصياد الذي يحرم نفسه لذة النوم لكي يسعى إلى رزقه بشباك هي سلاحه ، والصبر والمثابرة متكأه بعد توكله على الله دون تراخ أو توان أو تواكل ؛ من مثل قوله :

قد أغتدى نشوان من خمر الكرى أسحب بردي على برد الثرى

و الصبح حمل بين أحشاء الدجى والريح كالراح نأى عنها القذى

ينم رباها على زهر الربى بذات أحداق ترى ما لا يرى (١)

و الصياد أحياناً ما يحن و يطرب للصيد بعد انقطاع أو بعد عن شباكه و غديره ، فيمسك بأداة رزق يقوم عليها مأكل و شرب كل من يعوله ؛ فيقول :

عندي إذا ما ارتاحت القلوب وحن للصيد الفتى الطروب

أداة رزق شأنها عجيب يخصب منها لمنزل الجديب (٢)

---

(١) ديوان السري الرفاء : ص ١٠

(٢) ديوان السري الرفاء : ص ٦٢

لقد ربط الشاعر بين فئة عمرية بالصيد ، و هي مرحلة الشباب و الفتوة و العنفوان ، فالصيد في حاجة لجد و عزيمة ، وقوة و شكيمة تلزم لنشاط دائم نحو صيد وطرد على سطح الماء أو في عمق النهر أو الغدير.

على هذه الشاكلة رأينا قضايا فكرية خصت شعر الصيد البحري ، أو الصيد بالشباك ، جاءت بتركيز أعلى و تكثيف ممتد ، و تسليط ضوء نحو وصف (الشباك) باعتبارها (السلاح) الذي يلزم الصياد ، فأكثر وأبدع ، وصاغ مقطوعات شعرية ، أو أرجوزات سريعة الإيقاع تطرب السامع و الرائي لتصويرها .

و يفلسف الشاعر رؤيته الفكرية في سرد وقائع الصيد بلون منطقي وكأنه تقمص شخصية الصياد حال استعداده ، و حال صيده ، و حال ظفره بالصيد الممتع الذي يعد رزقاً وهبة الله لجهده الجهيد ذاك الصياد المثابر العنيد ، بدهاء و حيلة دون يأس أوجزع .

وعندما نفند المضامين الفكرية نجد أفكار الرزق و تصوير الأسماك كأنها ياقوت و لؤلؤ و مرجان مستخرج من عمق الأنهار و البحار ، عليها يعيش الصياد و تخصب البيوت ، و تنعم بالشواء و كل ما لذ وطاب .

إن الرؤية الفكرية تعكس لنا قدراً من صدق دون خيال ،و معايشة دون نقل أو سماع ، فقد عاش الشاعر وولد في الموصل ، و عايش بيئة البحر و النهر ،و صادق فتيان الصيد والطرد .

ولوحات السري الرفاء الشعرية هي مرآة عاكسة ناقلة لكل تداعيات البيئة البحرية عن قرب ، ولم يسرد هذا المضمون لمجرد النقل ، إنما رصد بحب وهواية ، فالصيد توسيع لصدر الأغنياء، ومهنة و مجلبة للرزق لدى الفقراء ، و الصياد على قدر من البساطة والتواضع .

و الشباك يدقق الشاعر في صناعتها و خيوطها . وأوصافها تعطينا انطباعاً من ألوان التدقيق والتنسيق، فليس من رأى كمن سمع ، والشاعر رأي وسمع ، وعاصر وعايش وكان في قلب الحدث ، يصف بشعور أصحاب الصيد الحقيقيين. وهم أولو بكور و صحو ، و همة و نشاط ، و صبر و توسل إلى نيل رزق الله لعباده .

وهذا الشعر يعطي لنا سجلاً لحالات الشعر الشعبي في العصر العباسي ، و تحديداً في القرن الرابع الهجري عصر الشاعر . وهو لون من ألوان جديدة مبتكرة تدخل في نطاق شعر المهن و الحرف التي كان السري الرفاء من رواد وصفها مع ريادة شاعر كبير أيضاً وهو (كشاجم) الذي عاصره في بلاط سيف الدولة الحمداني .

المبحث الثاني

[القضايا الفنية في صيد الأسماك بالشباك]

عجيب أمر لغتنا العربية تلك؛ وبديع معجمها الذي يعين الشاعر في تطويع اللغة العادية ليحولها بتراكيب لغوية بطريقة فنية ليصوغ لغة شعرية في بوتقة الصورة الفنية الناتجة عن تصور لغوي، وتصوير فني بتشبيه واستعارة وكناية ومجاز؛ ليخرج بنا إلى لوحة ترسم بريشة رسام قد امتلك ألوانه وابتكر رسوماته

ويخرج أيضاً بصورة متحركة، وكأنها أخرجت على يد مخرج سينمائي صمم لوحة إعلانية، أو فيلماً وثائقياً تسجيلياً لحياة الصيد ومهنة الصيادين في العصر العباسي .

وكم هو رائع أن نجد القضايا الفنية في شعر (السري الرفاء) تثار على محك النقد والدراسة ، فلم يتطرق إلى لغة صعبة معجمية ، أو سلك مسلكاً وعراً من المفردات اللغوية ، بل جاءت طبيعية طيعة له ، فيها ألوان من البساطة بوشاح الفصاحة، وثوب التأنق المطرز بزخارف الإمتاع اللغوي مع الإقناع الفني المبتكر.

ومن أهم القضايا الفنية التي نتوقف عندها في شعر صيد الأسماك [قضية اللغة] فاللغة الفنية في هذا الشعر دارت في فلك البيئة و حاجات القنص والصيد ، والتزم الشاعر جانب محاور الفكر .

فهناك لغة وصف الأسماك وأخرى للشباك، وثالثة لطبيعة الصياد في حالاته وهيئاته المهنية والشخصية.

ولو رصدنا اللغة الفنية في (وصف الشباك) لوجدنا منها [غبراء – الرداء– هلهلة – أعين –ملاءة ، الآل، عقد الآل] وذلك في قوله :

ملاءة ما نسجت لترتدى تزيد ضعفاً ظاهراً وهو قوى

وجدة تحسبها العين بلى غبراء كالدر تغشاها الصدا

تعوم في أبيض كالآل صفا ترسب في أحشائه صفر الحشا

كأنها عقد لآل قد وهى أوعن نقي البطن موشى القرى(١)

إذن الشاعر جعل من الشباك ملاءة تنصب لصيد الأسماك وهي عقد متصل متماسك لا ينفرط ، ولا ينفك ، بل هو مهلهل يقبع على اقتناص وجذب ومحايلة وخداع لكل ما استطاعت الإمساك به من أسماك .

وهي خفيفة حال تلقى؛ ثقيلة حال تحمل محملة بالرزق الأزرق الياقوتي ، و اللؤلؤ الفضي الذي يريح العين، ويملأ الناظر حمداً و شكراً وإعجاباً وطرباً .

وكما أجمع الباحثون والدارسون على أن الشاعر لا يخلق الكلمات من العدم ، بل يستخدم معجمه المتاح ، ((فالشاعر يخلق العلاقات التي تخضع عناصر التأليف فيها للدرس الدقيق)) [٢]إذن فالسري الرفاء قد توجه في شعر الصيد و الطرد بإبداع و ابتداع علاقات لغوية تنشئ مضامين فكرية ليعطى لنا في النهاية لغة فنية معبرة موجته يوظفها بفكره ، و ينمقها وفق تصويره ليخلق لنا علاقات معجمية شعرية مبتكرة.

و من يتأمل المعجم اللغوي لشعر صيد الأسماك بالشباك عند الشاعر العباسي المتميز (السري الرفاء) يجد بجلاء ووضوح أنه يسير في ركاب اتخاذ اللغة وسيلة لنقل الفكرة. فهي الوسيلة وهي الغاية في آن واحد ، ((

---

(١) ديوان السري الوفاء : ص١٠

(٢) مدخل إلى علم الجمال الأدبي للدكتور عبد المنعم تليمة : ص ١١٣، ص١١٤ط.دار الثقافة مصر ١٦٨٧

فاللغة دال ومدلول و اللغة ليست إلا وسيلة نقل الفكر ، فجوهر المحتوى هو المعنى وشكله هو اللغة والأسلوب)) [١].

و اللغة الفنية عند الشاعر قد آتت ثمارها المرجوة من دلالات ثرية واضحة ، فيها قدر من السهولة والسلاسة و البساطة ، ((فنرى أن الألفاظ في بساطتها وجلالها ليست في المحك ، ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها)) [٢].

ولوحة الأسماك مع الشباك و الصياد قد تعانقت لتعطى صورة كاملة الأركان مستوفية الشروط اللغوية والفنية في إطار التعبير الحي بالعاطفة المترابطة بالمضمون الفكري .

من أجل ذلك اهتم النقاد واللغويون بقضية اللغة التي يستخدمها الشاعر جسراً لعبور مساحات شاسعة لدى القارئ والسامع أو المتذوق ، فهي لغته و لسان حاله ، بل هي منطقه ، و الوحدات اللفظية قد وضحت بشكل متجانس متآلف ، فهمها النقاد و الدارسون في شعر ممتع و سلس و بليغ أيضاً .

و لو قسمنا الوحدات اللفظية لشعر الصيد بالشباك نجد أنها تسير على النحو التالي:

(١) وحدات اللغة الفنية لصورة الشباك :

---

(١) بناء لغة الشعر لجون كوين – ترجمة د. أحمد درويش ص ٤٢ ، ط. دار المعارف جـ ٢ / ص١٩٩٣م.

(٢) الشعر كيف نفهمه و نتذوقه – اليزابث دورو . ترجمة . محمد إبراهيم الشوش ط. دار صادر بيروت ص . ٨٩ ١٩١١م .

[خفيفة – ثقيلة – ألف عين – أعين – الرداء – هلهلة – خناجر – درع – ملاءة – غبراء – عقد الآل – أحشائه – أقذاء – تردي – بيضاؤها – أداة رزق– شأنها عجيب – عيونها – بعض – قدا – مارق – رسبت – تعوم – سوارها– آلة رزق – مسجور– مارقة السهام – مليح القد – لحاظ عيونها – عرمضا نشر الردى – مجردة – سنان – مفضض – مفتض – محجوبة– قصب القنا – الهلال – تخطف– حسام القين – راصدة – كثيرة الأحداق].

(٢) الوحدات اللفظية لصورة الأسماك :

[مارقة – مرق السهام– مليح القد – سابح – الحائن المنقض – طارقها – بكر– مقتض – الرزق – بنات الماء – ياقوته – الآسي – الجنى – رفرف – حيتان – سرب – صافي الحمام – أزرق – أنصاف السيوف – تبرق – تمرق – أحداق – مجنح الجنبين – مدية – مصقولة – رزقاً هنيئاً – يملأ العينين– طعام القرى – قرى الصيف والمشتى – صبغ من اللجين – بغيركد – بغير أين – جواهر – جواهر الرزق – نسق – فصوص ياقوت – زرق – رمق –غرائب الوشي – اليقق – مخازن الفضة].

٣– الوحدات اللفظية لصورة الصياد :

(فتية – أغبر – أشعث – يد الصياد – خد أسيل – صحب – صحبي – حائن – باكر يغدو – أورق – موثق – أعتدي – يهلهل – يرمي – برده)

على هذه الشاكلة نرى بوضوح حسن توظيف الشاعر للوحدات اللفظية في شكل متناسق، وتراكيب متآلفة تعطى الفكرة وتبرز المعنى، وتنسج الصورة بشكل إبداعي رائع التضمين عال في مستواه وهذا هو جوهر الإبداع اللغوي .

والسري الرفاء قد أجاد بناء جمله اللغوية ، و صاغ معجمه الشعري اللغوي على قدر من الفصاحة المعهودة ، تتمتع باستنطاق الطبيعة واستلهام البيئة العربية البحرية العباسية .

لقد أجاد الشاعر بناء لغته الشعرية، وألف لغة شاعرة توحي بتمكن وإتقان، وحسن تأنق وتفنن ليواكب بين لفظ ومعنى محققاً نظرية النظم كما صاغها عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة ولم يخرج عن إطار التميز ولم يأت بغريب لفظي بقدر ما أتى بطرافة في الاستخدام والتوظيف اللغوي .

والحقيقة تؤكد أن السري الرفاء قد نجح باقتدار في قضية التوظيف اللغوي لشعر الصيد والطرد بالشباك في شكل أرجوزة، أو منسوجاً على بحر الرجز في أعمه الأغلب؛ ليعطي لنا دلالات التدقيق في معالم البيئة البحرية .

و شعر السري بلغته الفنية يعد مرآة لتطور العصر، وتميز المضمون و اللغة نحو الشعر الجديد المبتكر لغة ومضموناً؛ فنا وتصويراً وابتكاراً .

القضية الفنية الثانية [الموسيقي و الأوزان]

تعد الموسيقي الشعرية في إطارها الخارجي المعروف بالبحر الشعري و العروض و القوافي ، و إطارها الداخلي من محسنات بديعية متعددة داخل البيت الشعري مقياساً للطرب أو إطراب الآذان واستمالة القلوب و الأسماع و الأبدان .

و الموسيقي بما فيها من وزن و إيقاع ،و قافية وبديع موسيقي تعد روح اللغة الشاعرة ، بل هي جوهر الأداء التنغيمي و الإيقاع الموسيقي و الذي يختلف من شاعر إلى آخر حسب ثقافته اللغوية ، و امتلاكه لقضايا العروض بموهبة و فطرة ، و إبداع و تفنن .

ولا ينكر دور الموسيقي باللفظ أو الإيقاع في ضبط ميزان البيت الشعري؛ فالشاعر من خلالها و عن طريقها يستطيع أن يضبط لفظه ، ويزن تركيبه

، ويخرج الشاعر بشاعرية لغة مغناه تلقائيا و تعانق الكلمات و تناغم الصور الفنية .

إن الموسيقي في شعر الصيد لدي السري الرفاء باستخدام أراجيزه ، أو مقطوعاته التي قد تطول وقد تقصر حسب الدفقة الشعرية و الإحساس و التجربة الشعرية لوصف موقف وحادثه للصيد لدى الصيادين أصحاب المهنة أو الشباب الفتيان أصحاب اللهو و الهواية هي معلم حضاري للعصر العباسي في بغداد و الموصل آنذاك ، وحمص وحلب في الشام .

ولقد وعى الشاعر بذكاء وموهبة أن موسيقاه تعد عصا سحرية قد يكتب بسببها للشاعر في شعره الذيوع و الشهرة ، والانتشار السريع ويطير اسمه و يعلو بشعره في الأمصار والآفاق .

وكما رأينا عذوبة اللغة الفنية في اللفظ و الوحدة اللفظية ، أو التركيب اللغوي و دلالاته رأينار أيضاً على نفس المستوى و الأداء جمالاً موسيقياً رناناً . فالوزن أو البحر الشعري المنظوم على أساسه القصيدة أو المقطوعات لا يأتي تكلفاً أو إقحاماً. إنما يأتي بمحض التلقائية و العفوية ، فليست أوزان الشعر عند الشاعر [السري الرفاء] صورة موسيقية فرضت عليه فرضاً ، إنما يختار بانتقاء وعن سابق فهم ورغبة في توظيف الموسيقى لتعطي دلالات إيقاعية متناغمة .

ولا يمكن لنا أن نستغني عن حلية الموسيقي وزينتها المزخرفة للشعر ، فاللغة الشعرية الموزونة ذات الإيقاع تعد قوى خفية تشبه السحر يجذب بها الآذان ، فتميل إليها إصغاءً ، و تطرب لها القلوب. والموسيقي ليست حلية خارجية تضاف إليه ، إنما هي وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء و أقدرها على جذب الاستماع و التذوق والدرس و النقد والتحليل. بل هي

الأجدر على التعبير عن كل عميق و خفي من النفس ، ولها قدر عال مؤثر و سلطان متحكم في ناصية الإبداع الفني .

من هذا المنطلق فقد عني (السري الرفاء) بتوفير قدرٍ كبير من موسيقي الوزن ، و باستقراء مقطوعاته الشعرية وجدناها في شكل أرجوزة، أو منسوجة على بحر الرجز ، و أحياناً الطويل ، أو الوافر. وكلها تحقق الغرض المنشود ، ليسلي و يسري عن الصياد تعب المهنة ويقوي عزائمه وهممه على تحمل مشاق البرد القارص ، و الحرمان من خمر الكرى ولذة النوم في أخريات الليل قبل هزيع الفجر و مطلع الصبح.

وعندما نتناول موسيقي المقطوعة الشعرية التي جمع فيها أوصافاً للشبكة و الصياد و الأسماك ، نرى أنها نسجت على قافية الألف الممدودة ، أو الهمزة المكسورة ، مع التزامه بألف التأسيس ليعطي متنفساً في الوصف الشامل عن رحلة صيد وقنص ، و مغامرة و سعي للزرق الذي يقوم عليه الإنفاق و بناء الأسرة والمجتمع ، من مثل قوله :

وشاحب اللبسة والأعضاء أشعث نائي العهد بالرخاء

أفضى به العدم إلى الفضاء فوجهه للضح والهواء

أغبر يحوي الرزق من غبراء خفيفة ثقيلة الأرجاء (١)

نلاحظ في هذه الأبيات محسناً بديعياً يعتمد على إيراد الشاعر للطباق بين [خفيفة وثقيلة] والجناس الناقص بين [أغبر وغبراء]، مع تناغم موسيقي في حسن التقسيم بين جمل موسيقية على مستوى الشطر الواحد

---

(١) ديوان السري الرفاء بتحقيق البارودي و تيمور :ص٦

منفرداً والشطرين حال رؤية شمولية للبيت كاملاً، ونرى الموسيقي الخارجية الكبيرة المتوالية بقافية فيها حرف (مجهور) (طويل النفس) طيع التعبير. وكذلك كسر القافية أي الروي المكسور الذي يعطى مداً للنطق والإطلالة يلازم وصف هذا المضمون الشعبي لرحلة الصيد والشباك والصياد. والجميل أن نرى حفاظاً عروضياً لالتزامه بالترصيع في كل الأبيات التي وصل عددها إلى سبعة عشر بحراً يعكس تمكنا واقتداراً لقضايا الموسيقي لدى شاعر كبير وصاف من طراز متميز مثل السري الرفاء .

و يختار الشاعر قافية الألف المقصور بلغة رصينة هادئة ، تبرز لوناً طبيعياً لصورة التجهز للرحلة وطرح الشباك في الماء ، و تحركاتها لقنص واجتذاب الأسماك ، وقد صار على نفس النهج الموسيقي السابق بترصيع دائم وكذا تصريع ، من مثل قوله :

قد أغتدى نشوان من خمر الكري   أسحب بردى على برد الثرى

والصبح حمل بين أحشاء الدجي   و الريح كالراح نأي عنها القذى

تعوم في أبيض كالآل <u>صفا</u>   ترسب في أحشائه <u>صفر</u> الحشا

ملاءة ما نسجت لترتدى   تزيداً ضعفاً ظاهراً وهو قوى [(١)]

تلك المقطوعة و بقيتها التي بلغت أحد عشر بيتاً وفر الشاعر لها كل المقومات الموسيقية في القافية والوزن ، وكذا في التورية وحسن التقسيم ، و الجناس ما بين تام و ناقص ، فقد دبج (السري) لوصف الشبكة

---

(١) ديوان السري : ص١٠

والأسماك بنعوت سهلة قريبة ، و موسيقى خدمت لفظه و تعانقت مع فكره فأخرجت لنا لوحة ونوتة موسيقية تغنى تسرية و تسلية لتحميس الهمم و شخذها لمواصلة العمل .

إن الناظر إلى التقعيد الموسيقي لمقطوعات الشاعر في الصيد يرى أنها تؤدي وظيفة اجتماعية لقطاع أصحاب المهن الشاقة ، و تزخرف لوناً شعبياً و عصرياً آنذاك لمراتع اللهو لدى الأغنياء و الأمراء ، وكل الفتيان ، مع تواجده ليؤسس حياة بحرية عباسية ، أو قل بيئة البحر والصيد والطرد في العراق وأيضاً في الشام .

وعندما نتوجه بالفحص و التمحيص في أوزان و موسيقى أراجيز ومقطوعات الشاعر ، و أحياناً بعض القصائد ، نرى واقعية تحاكي البيئة لدى الشاعر ، فإيقاع الصيد يحتاج إلى تتابع الأحداث مع تواليها وسرعتها مع تسلسلها في تألف وتناغم بلوحة فريدة ترسم بالألوان بريشة أبدع رسام ، و تصوير كمقطوعة موسيقية ، أو سيمفونية رائعة أو فيلم تسجيلي .

وأسهمت إيقاعات الشاعر الموسيقية في أداء وظائف جمالية واجتماعية لشحذ الهمم و الشد من أزر الصياد ، فيدخل في بوتقة الغناء الشعبي ،أو الشعر الشعبي ، أو شعر الحرف والمهن والتي تعد مرآة لألوان الشعر العباسي على شاطيئ دجلة و الفرات ، و بعض أنهار بلدان الشام .

لقد أفاض السري الرفاء في وصف الشبكة بنعوت توصيفية كادت تصل في بعض الأحيان إلى درجات التجسيد والتشخيص و الاستنطاق . وأبدع إبداعاً و صفياً في نعت الأسماك بنعوتها من وحي البيئة واستلهام الطبيعة البحرية بكل تداعياتها وسماتها ؛ من مثل قوله:

للعين فيه أي وجه تصرف	بساط منشور نداه ينطف
له من الآسي الجنى رفرف	وجدول لجته لا تنزف

تصقل متنيه الرياح العصف فماؤه مروق منطف

مثل السراب افترا عنه الصفصف حيتانه دانية تلقف

فهي على ساحته ترفرف كل لسهم حتفه مستهدف (١)

القضية الثالثة [الصورة الفنية] تعد الصورة الفنية عند الشاعر بمثابة اللمسة الأخيرة لدى الفنان في إظهار الرتوش وأزهى الألوان، وهي الركن الثالث المتمم لهرم اللغة والموسيقي، وبالصورة تتضح التداعيات الذهنية والجهد الفكري المبذول لدى الشاعر في تكوين الصورة وبنائها بسابق تصور ثم تصوير ثم وضع الصورة على وجه التناسق والاكتمال تبرز ثقافة واطلاع الشاعر.

والصورة نتاج المؤثرات والمثيرات المستوحاة من البيئة في موروث الشاعر ومعاصرته في آن واحد؛ ليوضح جوانب الترابط بين الأشياء، مع قدر عال من الاستيعاب عند كل الشعراء؛ و(السري) بوجه خاص في رصد جمال الطبيعة الكونية التي طبعته بطوابع الذوق والجمال والتأنق والتفنن .

لقد كانت مصادر الصورة وروافدها عند السري متعددة مع توفيقه في استخدامها الاستخدام الأمثل والتوظيف الفني والجمالي مع الإمتاع الفني بجانب الإقناع الفكري ، فعبر بالصورة ((و الشعر رسم صامت، وللشعر صورة ناطقة، والتعبير بالصورة خاصية شعرية، والصورة كانت ولازالت موضع الاعتبار في الحكم على الشاعر، وهي تأخذ مكانها في المفاضلة بين الشعراء منذ القدم)). [٢]

---

(١) ديوان السري : جـ ٢ / ص ٤١٥ ، ٤١٦

(٢) الصورة و البناء الشعري للدكتور محمد حسن عبد الله : ط. دار المعارف.

ودارت أنماط الصورة الفنية في لوحة الصيد بالشباك ونعت الصياد ، و تصوير الأسماك ، والتي كانت وليدة تصور الشاعر فكرياً، ونتاج تصويره فنيا، و ثمرة مزج التصور مع التصوير؛ ليخرج لنا في النهاية صورة تحمل فكراً أو مضموناً و تمتاز بلغة تصويرية، وتعزف موسيقى إيقاعية.

فأنماط الصورة ما بين مفردة قليلة، ومركبة عنقودية هي السمة الأكثر شيوعاً وتداولاً في شعر الصيد والطردى العربي لدى السري الرفاء الموصلي. ونأخذ نموذجاً على سبيل التمثيل. لا الحصر–حيث يقول:

وباكر لغيره ما يرزق	مثر به طوراً و طوراً مخفق
يغدو وجلباب الظلام أورق	والأفق لا جون ولا مخلق
يهلهل الصنعة هو موثق	يلحق بالماء التي لا تلحق
و يرمق الشخص الذي لا يرمق	وهل يفوت لحظة أو يسبق
وكله نواظر لا تطرق	حتى إذا نم عليه الفلق
وضمة صافي الحمام أزرق	أحشاؤه من غير رعب تخفق
جاء بأمثال المدى تألق	أو مثل أنصاف السيوف يترق
تمزق و الحين عليها مطبق	أحداقه سور عليها محدق

إن المتأمل لهذه الصورة يرى جوانب تمازج الصورة في أجزائها و تناغمها ، فبدا بتقعيد زمني لرحلة الصيد في البكور بجد ونشاط يسابق الطير في أكنانها، بل في بعض الأحيان يسبق صياح الديكة و أذان مؤذن الفجر معلناً يوماً جديداً .

ويفلسف قانون الصيد، إما قد أصابه الرزق والتوفيق وعاد فرحاً محملاً بالشباك التي ثقلت، وإما عائداً بخفي حنين، فلا هو رزق، ولا هو هدأ واستكان وتجنب ويلات زمهرير البرد القارص على شاطئي النهر أو البحر.

ويرسم لوحة سواد الظلام؛ وشعور الصقيع الذي يجمد العروق في الأبدان، ويصف بالصوت والحركة والهيئة حسن توكله على الباري. يفرد

شباكه ويلقي بها في الماء ، وهي ذات ألف عين نواظر تساعده في اجتذاب الأسماك، وهي أداته في نيل الرزق المباح؛ ليخرج بعد الإصباح بفلاح ونجاح لصيد مبهج ثمين يعيش عليه و يطعم أولاده .

واستهوى الشاعر وصف السلاح الباتر كالسيوف القاطعة الحادة التي تقطع فريستها متعددة الأشكال والألوان والأحجام. ولقد صاغ الشاعر كل صوره الفنية على غرار الديباج والتنميق بلآلئي الألفاظ ويوشيها بدررالتراكيب ويزخرفها بياقوت الموسيقى الحالمة في آن والسريعة في آن آخر؛ والممتدة في مرحلة ثالثة .

ولوحة تصويرية أخرى تبرز الألوان اللؤلؤية ، و جواهر و ياقوت تلك الأسماك في الصيف و شتاء ، ويعطى للصياد قدره التصويري ، الجاد الساعي على الرزق ، و الشباك ذات اللواحظ ، و الأسماك البيضاء والخضراء والحمراء ؛ فيقول في لوحة وصلت إلى سبعة عشر بيتاً .

وشاحب اللبسة و الأعضاء أشعث نائي العهد بالرخاء

أفضى به العدم إلى الفضاء فوجهه للضح والهواء

أغبر يحوى الرزق من غبراء حفيفة ثقيلة الأرجاء (١)

ويواصل حديثه بعد أن صور الصياد في ثلاثة أبيات ليتفرغ باستفاضة وإسهاب في نعوت (الشباك) قائلاً:

كأنها هلهلة الرداء كلفها لحظ بنات الماء

بأعين لم تؤت من إغضاء كثيرة تربى على الإحصاء

وأقبلت تملأ عين الرائي بكل صافي المتن والأحشاء (١)

---

(١) ديوان السري : جـ ٢ / ص ٦

أما لوحة الأسماك فيراها على النحو التالي :

أبيض مثل الفضة البيضاء ... أو كذراع الكاعب الحسناء
فحاز إذ خاطر بالحوباء ... سعادة الحد من الشقاء
حل لنا في حلى عناء ... من صنعة الإذلاج والإسراء
والصبح حمل في حشا الظلماء ... و نحن نذكي شعل الصبهاء
فمر و الأوتار في مراء ... كمل مثل زبدة السقاء
أطلقه من لجة خضراء ... في لجة يلعب في ضياء
كأنه ملقى على الحصباء ... ينظر من ياقوته زرقاء
في جوشن مفضض الأثناء ... قد لها من جونة الضحاء
أو من حبير مزنة غراء ... غداونا بورك من غذاء
نؤثره في الصيف و الشتاء ... على القديد الغض والشواء
رزقاً رزقناه بلا عناء ... نعده من سابغ النعماء (٢)

صورة فينة رائعة المستوى عالية التعبير، ذات قيمة فنية و قيم فكرية لخص فيها (السري الرفاء) كل مراحل الصيد، بل جمع فأوعى جميع فلسفات الصيد بالشباك للأسماك. يوضح تصوير محاوره الثلاثة، ما بين صياد ماهر محترف، وشباك خاطفة قابضة، وأسماك ناصعة لامعة أشبه بجواهر وياقوت زمردية متجانسة الألوان والأشكال فتبارك الرحمن فيما خلق، ذلك الرزق الذي يمتع العقول والأبدان ، فهو متاع طيب المذاق خفيف ظريف ، طريف لطيف ، فما أجمله! وما أحلاه !

---

(١) ديوان السري : ص ٦ ، ٧ .

(٢) ديوان السري / ص ٧

إن الصورة الفنية تدل دلالات واضحة على عمق ثقافة الشاعر في استلهام بناء الصورة و إفادته من الشعراء و الأقدمين ، ثم بناء شخصيته الشعرية بلون فريد و طراز متميز بمزايا الحدة و الابتكار و التلوين العقلي والفلسفي والبنائي للصورة .

والصورة جاءت في (البناء) (و التعقيد) على وتيرة الحداثة و الشعر المولد المبتكر في مضامينه ، والمبدع في بديعه اللفظي و موسيقاه و إيقاعه الرنان و الحالم أيضاً ؛ يطرب الآذان و تستميل إليه العقول ، وتهفو له النفس المتذوقة للجمال والفن.

<u>وبعد أن تجولنا في شباك صيد (السري الرفاء) رأيناه يسير في ذلك الموضوع الشعبي الطريف الذي يعكس بيئته ، و يبلور طراز فنه الشعري الرائع على عدة مستويات .</u>

(١) <u>مستوى عذوبة اللغة المعبرة</u> في لفظ سلس بسيط موح بألوان المعجم اللغوي الفصيح المبسط المتداول خفيف النطق على اللسان، سهل الاستيعاب دون تعقيد أو تكلف .

(٢) <u>مستوى الاندماج الحسى والتجربة الشعورية</u> ، فكما أبدع الشعراء الفرسان على الحقيقة وصف ساحات الوغي وتسجيل مآثر الأبطال و مغامراتهم وملاحم تضحياتهم من مثل فروسية (المتنبي)، وفروسية (عنترة) وجدنا (السري الرفاء) وكأنه قد امتهن <u>مهنة الصيد على الحقيقة</u> لا يصور من غطاء خارجي متكلف، بل يسير بنبض الصياد بعقله وفكره، وحسه ومشاعره، في لباسه، في <u>هيئاته</u> في تحركه وكل أعماله وبذلك سار مسار الواقعية في الوصف والصدق في التعبير فأمتع القارئ فنيا ، وأقنعه فكرياً ومنطقياً .

(٣) مستوى التنغيم الموسيقي بالأرجوزة للصيد ، أو النظم على منوال الرجز ذى الإيقاع المتوالي المتجانس (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) سواء في تمام وصحة وزن البحر ، أو تجزئة البحر .

(٤) مستوى التعبير عن البيئة البحرية العباسية بشكل وثائقي كأنه سجل للأحداث و تصوير سينمائي لصورة الصيد و الطرد البحري

(٥) مستوى الثقافة لدى الشاعر ، فالسري جاء بوصف الصيد بكل تواضع واندماج مع تفاعل وانفعال حقيقية ، فلم يشبه أو يصور باستعارات وكنايات من برج عاجي؛ بل جاء من قلب الحدث بكل ألوان التقارب العقلي ولمسه لمستويات الصورة بأداء سهل لين لا وعورة فيه؛ ولا التواء أو تأويل .

(٦) مستوى التأثر بمهنته وهي مهنة (التطريز و الرفاء ، و الحياكة أيضاً جعلته مدققاً مفصلاً لكل أجزاء الصورة ، يصوغ و يطرز ، يبسط يوشي ، بألوان وهيئات ، وحركات و أصوات ، فظهرت واضحة في بيان تراكيبه اللغوية و بناء صوره الفنية .

(٧) مستوى الابتكار في الوصف؛ فهذا الشعر يدخل في نطاق التعامل مع الطبيعة البحرية التي تعادل الطبيعة البرية الصحراوية عند الشاعر العربي لحالات الصيد و الطرد البري . وقد وفق الشاعر في نقل مفردات الصيد و الصياد و الشباك في اجتماع وتناسق .

(٨) مستوى التعبير اللغوي الذي حرص فيه الشاعر على انتقاء مفردات تواكب الحدث ، و تصف الهيئة ، وتساهم في نقل ما يحدث على الحقيقة بانشراح دون تعقيد يذكر .

(٩) مستوى توظيف اجتماعي و نفسي لدور شعر الصيد في الدفع بالهمة و النشاط و بعث كامل آيات التشجيع لتحمل مشاق الصيد و متاعبه.

وإذا توقفنا عند الشاعر حال وصفه لشعر الصيد وجدناه على عدة اتجاهات ، منها :

(١) اتجاه الشاعر المجرب الواعي لأهمية هذا الصيد مهنة ، و شعر وصف الصيد تعبيراً يحبب إلى أصحابه ذكره و التغني به دفعاً للملل و إزجاء و طرداً لكل المتاعب و استيعاب الآلام لتتحول إلى آمال في نيل الرزق الحلال المباح بجد وكد .

(٢) اتجاه الشاعر الوصاف من طراز فريد يشهد ديوان شعره له عامة ، و شعر الصيد خاصة بقدر من طرافة التعبير الإبداعي ، و أناقة الموسيقى ، و ابتداع بناء و تأصيل الصورة الفنية .

(٣) اتجاه الشاعر نحو استلهام التراث الفني في الشعر العربي القديم السابق على السري الرفاء بقدر من الوعي و الإفادة؛ وبناء شخصيته على قدر من التوازي و المعادل الموضوعي دون اتباع فقط يخلو من إبداعه ، أو استحداث دون سابق رسوخ في الصياغة و البناء الشعري .

(٤) اتجاه الشاعر بشكل شعبي يجعله من خلال هذا الشعر في مصاف الشعراء الشعبيين العباسيين الذين نقلوا شعراً صادقاً لنبض الشارع أو رجل الشعب البسيط البعيد عن أبهة الملك و سدانة السلطة ورونق الجاه و كبار رجالات الدولة .

و إذا فندنا المستوى الشعري لمضمون صيد الأسماك رأينا بكل وضوح أنه قد أدى عدة وظائف ، منها:

(١) وظيفة جمالية لطرح صورة رجل الصيد و مهنة بحرية لا تنشأ إلا في بحر أو نهر أو دير يلقي بظلاله على طباع وسلوك من عاشوا في هذه البيئة بكل مؤثراتها و مثيراتها التي تؤثر وتتأثر .

(٢) وظيفة نفسية فيها انشراح للصدر ، و توسعة ومتنفس حال الضيق ولاضجر من ضغوط الحياة و بعيداً عن رسميات المعاملات بين أفراد المجتمع .

(٣) وظيفة تاريخية ، يسرد لنا الشاعر تاريخ وصف الصيد في بيئة العراق و الشام؛ والتي كانت مثار حياة العرب لمناحي التمتع بألوان الرفاهية حال ربع الأصدقاء أصحاب السلطان والجاه و مناحي العيش الجاد الذي يعيش على إثره في كل بيئة صيد و طرد أناس قد أطعمهم وأنفق عليهم من جراء صيد الأسماك.

(٤) وظيفة اجتماعية تؤسس تصويراً لمجتمع الصيادين بلغاتهم وتحاورهم ، و نبض مشاعرهم ، فهم في اهتمام بكل ما يتعلق بحياة الصيد و أحلام الصيادين وهي بسيطة لا تعدو السعي الحثيث على الرزق يتوكل وفيض الرحمن على هؤلاء العباد .

وقد جمع (السري الرفاء) كل مراحل الصيد ،ووصف نعوت الشباك وأحس بمشاعر الصياد بشكل فيه إبداع و انسيابية لغوية ، و زخرفة تصويرية ، و تطريز موسيقي ، نقل فأمتع ، ووصف فأبدع ، وصور فأبهج كل من تذوق شعره و تأثر بفنه .

المصادر والمراجع :

المصادر :

(١) ديوان السري الرفاء – الجزء الثاني – تحقيق دكتور : حبيب حسين الحسيني طبعة دار الرشيد للنشر – العراق – الطبعة الأولى –١٩٨١ .

(٢) ديوان السري الرفاء عن نسختي الأديبين الكبيرين تيمور باشا، و البارودي باشا – طبعة دار الجيل – بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٩٩١م .

(٣) المصايد والمطارد لكشاجم تحقيق دكتور : محمد أسعد أطلس – دار اليقظة – بغداد العراق – ١٩٩٤م .

****

المراجع القديمة :

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير تحقيق د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة . طبعة نهضة مصر – ١٩٦٢م.

(٥) المؤتلف و المختلف في أسماء الشعراء و ألقابهم وكناهم للآمدي تحقيق عبد الستار فراج . طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٩٨٣م .

(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . طبعة مطبعة السعادة – مصر – الطبعة الأولى – ١٩٣١م .

(٧) ديوان المعاني للعسكري – طبعة – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – ١٩٨٠م .

(٨) زهر الآداب و ثمر الألباب للحصري القيرواني – تحقيق : على محمد البجاوي – طبعة عيسى الحلبى – مصر – أربعة أجزاء – ١٩٦٥م .

(٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي – طبعة مطبعة المقدسي – مصر – ١٩٥٠م .

(١٠) معاهد التدضيص لعبد العزيز البكري – طبعة مكتبة نهضة مصر – ١٩٦٠م .

(١١) مباهج الفكر و مناهج العبر للوطواط طبعة المطبعة الهندية ١٩٧٥م .

(١٢) معجم الشعراء للمرزباني – تحقيق عبد الستار فراج – مطبعة دار الكتاب العربي – بيروت– لبنان – ١٩٦٥.

(١٣) نهاية الآدب في فنون الأدب للنويري : طبعة مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٢٩م .

(١٤) وفيات الأعيان لابن خلكان وأبناء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل و المشافهة والعيان طبعة مكتبة نهضة مصر – ١٨٩٦م.

(١٥) يتيمة الدهر للثعالبي – طبعة دار الكتب العملية (أربعة أجزاء)– الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

****

المراجع الحديثة :

(١٦) الصورة و البناء الشعري للدكتور / محمد حسن عبد الله – طبعة دار المعارف – مصر – ط٢ – ١٩٨١م .

(١٧) تاريخ الأدب العربي للدكتور / عمر فروخ – طبعة دار العلم – بيروت ط١ ١٩٦٥م .

(١٨) شعر الطبيعة للدكتور / سيد نوفل – طبعة دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

(١٩) عصر الدول و الإمارات للدكتور شوقي ضيف – طبعة دار المعارف – الطبعة السابعة – ١٩٨٦م .

(٢٠) مدخل إلى علم الجمال الأدبي للدكتور عبد المنعم تليمة . طبعة دار الثقافة – مصر – ١٩٧٨م.

(٢١) فن الوصف لإيليا الحلوي – طبعة دار صادر – بيروت – ١٩٨٦م .

****

المراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية :

(٢٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز– ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة – طبعة نهضة مصر – ط ١ – ١٩٧٤م .

(٢٣) الشعر كيف تفهمه و ونتذوقه لاليزابث دورو – ترجمة : محمد إبراهيم الشوشي طبعة مطبعة ميمنة – لبنان –١٩٦١م .

(٢٤) بناء لغة الشعر لجون كوين : ترجمة د / أحمد درويش – طبعة دار المعارف – مصر – ط٣ – ١٩٩٣م .

(٢٥) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان – ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبعة دار المعارف – ط٥– ١٩٨٣م .